الجذور العقائدية والتاريخية لهجرة مى ورنو إلى السودان

عمر النقر

لعل قرية مايرنو من أشهر القرى السودانية التى أسسها مهاجرون من الغرب أو « الفلاته » كما يسمون عرفا فى السودان . واصل لفظ مايرنو كلمتان ، الاولى كلمة « مى » ومعناها فى لغة الهوسا السلطان ، والثانية كلمة « ورنو » وهى قرية تقع على بعد خمسة واربعين ميلا شمال شرقى مدينة سكتو بشمال نيجريا . وكانت قرية ورنو مقرا للسلطان محمد بلو بن الشيخ عثمان بن فودى وبها قبره الآن . ونسبة لارتباط القرية باسم ذلك السلطان صار تقليدا فى عائلة سكتو المالكة ان يلقب ابن السلطان الحاكم — ان كان اسمه محمد بلو بـ « مى ورنو » — اى سلطان ورنو . « ومى ورنو » الذى اطلق اسمه على القرية السودانية هو محمد بلو بن السلطان محمد الطاهر بن احمد . وسنناقش هنا الحوافز الرئيسية لهجرات « الفلاته » للسودان بوجه عام وخاصة فى القرن التاسع عشر والاسباب التى أدت الى هجرة مى ورنو المذكور والى تأسيس قريته على ضفة النيل الازرق .

هنالك أسباب عدة تحدو الناس الى الهجرة كالضغط السياسى أو الدينى أو الاقتصادى مثلا . ويضيف المشتغلون بشئون غرب افريقيا وعلاقاتها بالسودان عاملين آخرين ، الاول اسطورى مرتبط بفكرة جماعية كمعتقد قبائل الفلان مثلا بان هنالك مملكة فى الشرق ستقودهم الاقدار رويدا رويدا لاستعادتها ، والثانى عامل ملموس يتلخص فى الرغبة فى تأدية فريضة الحج كما هو معروف . وقد كان نتيجة لهذه الدوافع مجتمعة أو منفردة ان ترسبت فى فترات مختلفة جاليات من « الفلاته » فى اماكن عدة من السودان نذكر منها على سبيل المثال مملكة التكارنة فى منطقة القلابات فى شرق السودان والتى تكونت حوالى منتصف القرن الثامن عشر وجالية كبيرة فى فاشر دارفور تحدث عنها الرحالة محمد بن عمر التونسى فى رحلاته فى آخر ذلك القرن وقرية الشيخ طلحة التى أسست مايرنو محاذية لها فى الشط الغربى من النيل . الا ان تاريخ القرن التاسع عشر الميلادى يضيف عاملين آخرين اساسيين فى تحبيب الهجرة شرقا للافراد والجماعات ، أولها ملابسات عقيدة المهدية وثانيها احتلال القوات الاوربية مناطق شاسعة فى غرب افريقيا فى نهاية ذلك القرن .

تنبوءات المهدية

يدعى بعض المؤرخين أن بعض المصادر الاسلامية القديمة قد تنبأت ان نهاية العالم ستكون في القرن الثالث عشر الهجري وان ذلك الحدث سيسبقه ظهور الامام المهدى ليطهر الارض من الشوائب ويملأها عدلا . والقرن الثالث عشر الهجرى يطابق السنين بين ١٧٨٦ ـ ١٨٨٣ من القرن التاسع عشر الميلادى . وقد كانت هذه الفترة ـ كما تتفق المصادر ـ فترة ترقب وانتظار لظهور الامام المهدى فى كثير من البلاد الاسلامية . وحقيقة فقد كان القرن التاسع عشر فترة ازدهار كاسح للقوى الاسلامية فى غرب افريقيا تبلور فى إنتصار حركات الجهاد الاسلامية التى انتظمت ذلك الاقليم من المحيط الاطلنطى غربا الى بحيرة تشاد شرقا . كان أول هذه الحركات جهاد « الفلانى » فى بلاد الهوسا (شمال نيجريا الحالى) والذى كلل بين سنى ١٨٠٤ ـ ١٨١٠ بقيام امبراطورية الفلانى ـ وتعرف أيضا بامبراطورية سكتو ـ تحت امارة الشيخ عثمان بن محمد فودى (ت ١٨١٧) . واعقب ذلك نجاح جهاد الشيخ أحمدو لوبو بين سنى ١٨١٨ ـ ١٨٢٢ فى شرقى جمهورية مالى الحالية . وفى النصف الثانى من ذلك القرن اقام الشيخ الحاج عمر بن سعيد الفوتى ، بعد حروب طويلة ، امبراطورية اسلامية ـ عرفت بامبراطورية التكرور ـ امتدت من المحيط الاطلنطى فى الغرب الى نهر النيجر فى الشرق . وقد نجحت هذه الحركات والى حد بعيد ليس فقط فى ان تفرض الاسلام على وثنيين بل فى ان تجدد ثوبه البالى . وبما ان غرب افريقيا كان ومازال مرتبطا ارتباطا وثيقا بما يجرى فى العالم الاسلامى فلا غرو أذن أن اذكت هذه الثورات روح التوقع هذه . والذى يهمنا من أمر قواد النهضة الاسلامية الثلاثة المذكورين ـ فى حدود تنبوءات المهدية ـ أمر الشيخ عثمان بن فودى لانه قاد أول تلك الحركات ولأن محمد بلو مؤسس قرية مايرنو أحد أحفاده .

يقول البعض ان من أسباب نجاح ثورة الشيخ عثمان فى شمال نيجريا توقع الناس لظهور المهدى فى ذلك الوقت . أما الشيخ عثمان نفسه فقد نفى عن نفسه صفة المهدية وفى معرض نفيه هذا قال أن المهدى لاشك سيظهر ، فى الشرق ، وتنبأ بقرب ظهوره وزاد على ذلك بأن أمر جماعته حين ظهور المهدى ان يهاجروا بقيادة أميرهم للاقاته ليؤدوا له البيعة ولينضووا تحت لوائه . فمن تعاليم الشيخ عثمان فى هذا الصدد ترسبت فكرة الهجرة الجماعية والتى يكون قوامها كل الجماعة ويقودها ويكون على رأسها أمير المؤمنين الحاكم فى ذلك الوقت . وأصبح هذا المفهوم ذا فعالية لافى أذهان العامة فحسب بل صار عنصرا أساسيا فى سياسة سكتو الرسمية .

يقول الشيخ محمد بلو بن الشيخ عثمان فى « انفاق الميسور » ساردا مابلغه اهل كنو من تعاليم والده الشيخ ونصائحه :

« وأخبرت الكل بأن الوالد حياهم وأمرهم بالمبايعة على السمع والطاعة ... وقبلوا النصيحة واخبرتهم بما بشرهم به من قرب ظهور المهدى وان جماعة الشيخ طلائعه ولاينقضى هذا الجهاد حتى يفضى الى المهدى ... » .

وحينما تولى محمد بلو امارة المؤمنين بعد وفاة والده شرع فى اتخاذ تدابير عملية فى التجهيز لهذه الهجرة المرتقبة نورد على سبيل المثال جزءاً من خطاب أرسله الى الشيخ موديبو آدم أمير ادماوا والتى كان ينتظر ان تبدأ منها الهجرة نحو الشرق :

« ... والأمر الذى ذهبت به من عندنا وهو انفاذ الجيوش الى جنوب وداى وجنوب فور والى ناحية بحر النيل فاجتهدوا فى ذلك وانفذوا العيون الى تلك البلاد فان شيخنا رضى الله عنه أشار لنا بان جماعته تنتقل الى تلك النواحى عند قروب ظهور المهدى هناك يتابعون اليه ويبايعونه أن شاء الله » .

فمنذ امارة الشيخ محمد بلو اذن اصبحت فكرة الهجرة المرتقبة متطلبا رسميا ومنذ ذلك العهد نستطيع ان نلخص ملابسات الفكرة ككل فى اتجاهين: الاول الاتجاه الرسمى للدولة فى سكتو والثانى أثرها على الصعيد غير الرسمى وبين العامة .

أما من ناحية مواقف سكتو الرسمية فقد ترتب عليها عدة أشياء. منها مثلا ان احداً من أمراء المؤمنين فى سكتو لم يغادر حدود مملكته شرقا حتى ولا لأداء فريضة الحج . وقد فسر البعض هذه الحقيقة بخوف هؤلاء من ان يعتقد العامة ان سفرهم هذا انما هو تنفيذ للهجرة المرتقبة . ومنها أيضا المواقف الايجابية الحاسمة التى اتخذتها السلطات ضد بعض المدعين ممن أعلنوا فى الناس حلول وقت الهجرة وجمعوا حولهم المريدين بزعم قيادتهم لأداء فريضة الحج والاقامة هنالك فى انتظار المهدى . من هؤلاء مثلا معلم ياموس الذى ظهر فى امارة شرقى كنو فى ١٨٧٨ والذى اعتقله السلطان قبل أن يستفحل أمره . والجدير بالملاحظة هنا ان الرد على امثال هؤلاء لم يكن بانكار مبدأ الهجرة وانما بالقول بأن «الاشارات» التى حددها الشيخ عثمان لم تظهر بعد وبان الذين قادوا هذه الجماعات لم يكونوا الا مضللين ومضللين . واتخذت سلطات سكتو موقفا سلبيا حيال دعوة الامام المهدى عندما ظهرت فى السودان . فقد كتب المهدى الى أمير سكتو داعيا له لقبول المهدية وللقيام بالهجرة الا ان الأخير أهمل هذه الدعوة مدة حياة الدولة المهدية السودانية .

أما من ناحية العامة فقد ظهر كما اسلفت اناس ادعوا ان وقت الهجرة قد أزف مثل معلم «ياموس» فى امارة دوتس والذى اعتقلته سلطات سكتو ونفته فى الحال . ولعل أقوى هؤلاء المدعين شخصية وعقيدة وتبعية كان الشيخ شريف الدين المعروف « بمعلم دبابه » . يقال ان شريف الدين قد جمع انصاره باديا رحلته من السنغال معتمدا على وثيقة وردت له من الحجاز فيها الدعوة لثلاث أشخاص ليجهزوا هجرة المسلمين الى الشرق هم شريف الدين نفسه والشيخ عمر الفوتى وثالث يدعى عبد الباقى عركى لم تحدد شخصيته. وقد جمع شريف الدين حوله فى سيره الطويل آلافا من الناس من مختلف قبائل الغرب . ومر على برنو فى ١٨٥٦ حيث كرمه واليها الشيخ عمر الكانمى وسهل له المسير شرقا. وحين وصوله الى امارة باقرمى طلب منه سلطانها ان يتفادى العاصمة فرفض وكان شريف الدين من القوة العددية بمكان ووقع بينه وبين سلطان باقرمى عبد الرحمن عراك مسلح قتل فيه الأخير .

لاشك ان ظهور الامام المهدى فى السودان قد جاوب تطلعات الكثيرين من اهل الغرب اما دعوته وان لم تجد القبول من سلطات سكتو الأ ان احد ابناء الاسرة الشيخ حياتو بن سعيد بن محمد بلو وكان وقتها مقيما فى ادماوا معتزلا اسرته صدق بها وكتب اليه المهدى وعينه عاملا على الغرب وكتب له الخليفة يدعوه ليهاجر لامدرمان وكانت توجيهات الخليفة ان يصحبه فى ذلك رابح فضل الله الذى استولى على برنو فى ١٨٩٣ . ويعزو البعض فشل حياتو فى تنفيذ الهجرة الى عدم اخلاص رابح فى ولائه للمهدية وجرى شقاق بين رابح وحياتو انتهى بمقتل حياتو . وبعد موته انعقد لواء زعامة المهدويين للشيخ جبريل قاينى الذى أسس مستعمرة مستقلة حول مرتفعات برمى فى شرق نيجريا الحالى . وظل رابح فى مملكته دون ان يهاجر لامدرمان الى ان قتله الفرنسيون فى عام ١٩٠٠ – والى هنا يمكن تلخيص ماترتب على ظهور دعوة الامام المهدى لاهل الغرب ، وفى اطار مفهوم الهجرة الجماعية العام فى شيئين :الأول هنالك من صدق دعوته مقتنعا بأنه المهدى المنتظر وقام بالهجرة الى امدرمان ماعدا بالطبع من انتظروا صحبة حياتو . وهنالك من انكروا دعوة الامام المهدى وعلى رأس هؤلاء سلطان سكتو والمعتقدين فيه من جماعته وقد ظلوا فى مكانهم مدة دولة الخليفة عبد الله. وفى آخر القرن التاسع عشر تحت ضربات جيوش المستعمر الاوربى تفتحت الاذهان من جديد لمعتقدات الهجرة والمهدية .

الفتح الاوربى

فى أوائل التسعينيات بدأ الزحف الاوربى المنظم لاحتلال غرب افريقيا وقد نجم عنه الاستيلاء على الامارات والامبراطوريات المسلمة التى

تكونت فى أول ومنتصف ذلك القرن. فى عام ١٨٩٣ استولى الفرنسيون على آخر موقع من مراكز دولة احمد الكبير بن عمر الفوتى . وحين ايقن احمد بالهزيمة رأى ان يفر من سيطرة الفرنسيين مهاجرا الى الله ورسوله وتبعه فى ذلك حشد كبير من قومه . اما أحمد نفسه فقد وجد عطفا كثيرا من سلطان سكتو فى ذلك الوقت السلطان عبد الرحمن الأ ان الاقدار لم تمكنه من مواصلة سيره الى الحجاز فتوفى فى شمال نيجريا فى عام ١٨٩٨ . اما قومه فقد بقوا فى امارة سكتو وارتبط مصيرهم بمصيرها كما سيرد .

ولم يكن احتلال القوات البريطانية تحت قيادة ليوقارد لمقاطعات امبراطورية سكتو المختلفة اقل سرعة من احتلال الفرنسيين لدولة احمد الكبير . ففى ظرف ثلاث سنين بين ١٩٠١ – ١٩٠٣ استولوا على يولا وكنو وهزموا جيش معلم جبريل ممثل المهدية فى برمى والذى ورد ذكره آنفا وفى مارس من عام ١٩٠٣ دخلت جيوش ليوقارد مدينة سكتو العاصمة .

منذ ان بدأت تحركات الجيوش المستعمرة شمالا تبين لامراء سكتو النية الاستعمارية المبيتة فاتخذوا موقفا صارما يبين فى رد السلطان عبد الرحمن لدعوة ليوقارد له بقبول الوصاية البريطانية والذى قال فيه مامعناه ان ليس بيننا وبينكم الأمابين الكافر والمسلم – الحرب – كما أمر الله جميع المسلمين . الأ ان السلطان عبد الرحمن توفى فى سبتمبر من عام ١٩٠٢ اى قبل ان تصل قوات الاحتلال الى سكتو .

وقد أدى ظهور قوات النصارى وانتصاراتها الى ان برزت الى السطح العقائد الكامنة عن الهجرة ونهاية العالم والمهدية مختلطة . نجد ذلك واضحا فى خطاب من أمير يولا وهى محاصرة الى السلطان والذى انقل هنا ترجمته عن الانجليزية نسبة لعدم وجود الاصل العربى :

« اخبركم ان حكم النصارى قد وصل الى بلدنا يولا أما انا فلن انافق فى عهدى لك . فان ولائى لك انت أولا ومن بعدك للامام المهدى . ولن اتبع الكفار أو اقيم معهم حتى ولو أخذوا مدينتنا فان النبى قد قال ان من يتبع الكافرين أو يبقى معهم فهو منهم »

فى سبتمبر ١٩٠٢ وبعد سقوط كنو توفى السلطان عبد الرحمن ليخلفه سلطان محمد الطاهر بن أحمد . وقد أصبح جليا حينذاك ان قوات ليوقارد فى طريقها الى نصر شامل وهى تعد العدة لاحتلال العاصمة سكتو . وقد

ادت ازمة الهزائم العسكرية أيضـــا الى تذكر العقائد القديمة عن وجوب الهجرة فقـــد ذكـــر أمير كنو المهزوم السلطان عن طريق وزيره البخارى بضرورة ذلك فى خطـــاب أرسله الى الاخير ـ وهـــو أيضـــا مترجم عن الانجليزية لعدم وجود الاصـــــل العربى :

« لقد تشرفت برؤية خطابـــكم وفهمنا منه انك تتبع نصيحتى فانـــا وانتم نسعى لما فيه خـــير ديننا فى الدنيا والآخرة . أما أنا فلم أجـــد طريقا اجدى مما وضـــحت لك فى خطابى الذى حمله لك رسولى وهو ان نترك هذه الديار جميعنا . »

اما سلطان الطاهر نفسه فيبدو أنه كان مؤمنا وهو يرى زحف قوات النصارى الظافر وانتصارها على قواته المسلمة أن ذلك ايذان بحلول النهاية المتوقعة وقد فكر جديا فى الهجرة عن مملكته ويبدو ان بعض مستشاريـــه كان يختلف معـــه فى ذلك كمـــا هـــو واضح من خطـــاب محمد مى تراري (اصبح ســـلطان فى فترة ١٩١٥ ـ ١٩٢٤) والذى جاء فيه :

« وبعد احلفك بالله الأ تدع أحدا يسمع من فمك اننا نزمع الرحيل عن هذه الديار لأن فى ذلك نهاية لأمرنا. ودعنا ننتظر ونرقب ســـير الأمـــور فالأمر بيد الله . فاذا ما اضطرتنـــا الظروف الى الرحيـــل فلنهاجر والأ فلا . بل دعنا نجهز نفسنا الى حـــين أن يكتب الله لنا الرحيل »

فى مارس من عام ١٩٠٣ دخلت قوات ليوقارد مدينة سكتو واحـــدث ذلك انقساما فى افراد العائلة . جزء منهم قبل تأكيـــدات ليوقارد بعـــدم تدخل البريطانيين لا فى حكم السلطان ولا فى دينه ومن هؤلاء عين سلطـــان جـــديد اسمه أيضـــا الطـــاهر . أما سلطان محمد الطاهر نفسه فقد بقى على عقيدته وفر بعد المعركة معلنـــا ان موعد الهجرة عن سكتو قد أزف ولعل خير وصف لحالة الاضـــطراب التى خلقتها دعوة سلطان الطاهر لهذه الهجرة ماكتبه ليوقارد فى أحـــد تقاريره :

« ارســـل الســـلطان المعزول الرسل فى جميع ارجاء البلاد المختلفة داعيا الناس ان لايركنوا الى الكافـــر وان ينهضوا معه لا لشن الحـــرب علينا وانما لاداء الحج لمكة أو لادماوا التى يتوقع ان يظهر فيهـــا المهدى . وحين شرع السلطان فى السير نحـــو الشرق وازداد عدد اتباعه ازديادا مضطردا استولى نوع من الجنون على البسطاء والرجرجة وحتى على بعض ابناء الطبقات المحترمة . وســـارع الجميع الى الالتفاف حوله حاملـــين معهم كل متاعهم ومصحوبين بعائلاتهم ـ حتى المكفوفين والمقعدين ـ معتقدين ان السلطان سيقودهم الى المهدى . ونحب ان نوضح ان كل هذا لم يكن موجها ضدنا بل كما هو واضح مـــن مفاهيم أكثرية المهـــاجرين ان خوفا

اعمى ممزوجا بحماس دينى دافق قد ادى الى تحريك ذلك السيل من البشر » .

والجدير بالملاحظة فى خط مسيرة هذا الجيش الجرار من البشر والذى يقوده سلطان سكتو «المعزول» انه توجه نحو امارة ادماوا وانتهى الى مستعمرة المهدويين فى برمى . والمغزى فى هذا يكمن فى : أولا : الطريق من ادماوا شرقا هو الطريق الذى اشرنا اليه سابقا كالسبيل الذى صرح محمد بلو ان الهجرة العمومية ستتبعه حين ظهور المهدى وثانيا : المغزى المضمن فى اختيار برمى لمالها من ارتباط وثيق بتاريخ مهدوى الغرب .

لم يكن ليو قارد ليسمح لسلطان الطاهر بمواصلة مسيرته للشرق وعليه فقد حاصر معسكره وقد تجمع هنالك كل انصار سلطان الطاهر بينهم الكثير من الاعيان مثل أمير ميساو أحمد وحاكم كنتاقرا وحاكم كفى وكان معه أيضا فلول جيش أحمد الكبير بن الحاج عمر والذى وردذكره آنفا . انقضت القوات البريطانية على جيش الطاهر فى يوم ٢٧ يوليو ١٩٠٣ وكان النصر حليفهم وسقط فى المعركة الكثير من الاعيان بينهم سلطان الطاهر نفسه .

كانت معركة برمى الثانية هذه نهاية اخر محاولة لمقاومة الفتح البريطانى فى شمال نيجريا وكانت بداية النزوح الكبير الذى فاق فى عدده كل الهجرات السابقة نحو الشرق . فقد قدرت مصادر المخابرات البريطانية العدد الذى نزح بعد المعركة مباشرة بخمسة وعشرين الفا . بعضهم نزح كافراد وبعضهم فى جماعة قد تكبر أو تصغر . وكان على رأس جماعة سكتو النازحين محمد بلو بن سلطان الطاهر .

اتسم مسير محمد بلو وجماعته بالبطء فقد بقوا فى طريقهم مددا تبلغ السنتين كما حدث فى دار سلا ولعل ماقاله أحد المخبرين البريطانيين أبلغ وصف لنهاية مسيرتهم على شواطىء النيل الازرق حيث قال :

« ولما وصلوا الى النيل كانت حدة كراهيتهم للاوربيين قد زالت واصطدموا وجها لوجه بالحقيقة المرة ذلك ان حكم النصارى قد امتد الى النيل أيضا . وعندما وهبهم البريطانيون أرضا يسكنون فيها قبلوا وأسسوا قريتهم التى عرفت بمى ورنو » .